الديار الغائبة

إبراهيم البهرزي

غيابها عني في قيلولة العصور الطويلة
يضع خيمتي في مركز الشمس:
سوط النار
والوجه المتجهم الأبيد
وكتاب التقريع...
القدر حامل الريشة والدواة والعقل المدبر
عريف الوشاة وسيد القطيعة،
لتبق غلمتي إليها
صرصاراً في القميص العتيق
يتقافز بين مهرجانات المحن!
لتبق الشريعة المحفوفة بصيادي البط البري
مكسوة بالريش الدامي
لتبق العصور الطويلة نائمة في المؤجل والمرتجى
لا تغض غيابها عني
ولا تشرق بمطر مهرب عبر أنفاق أنفاسنا

****

قلت في غيابها ما لا يرضي المشتاقين البررة
قلت شيئاً عن وجوب الدم في الرأس
قلت شيئاً عن الإزهار السامة في أسرة الخونة الجسورين
لا لأن غيابها إنكسار حال جليل
ولكن الغياب
هو العتاب مشحوناً بالشتائم المقذعة..

****

إذا ناديت عليها
هل سأجد الطريق إلى المعصية الوضاءة
في المتحف المقفل؟
وإن نادت عليّ
هل ستهدأ مكبرات الصوت
ليضربني الصباح برشقة صغيرة من الندى على ذكري الكسير ؟!
فحولة الأغواء المحض تدرج قدام المقولات الكبرى
نتبعها ونغمز
تفر إلى الطريق الفرعية المشبوهة،
وحين نتم الاحتفاءات وتقاليد الحماسة
نتسلل إلى اللذة الطاغية في العقيدة:
أنا ثرثار اللذة
أقولها، ما علي بالسلالم المجيدة،
ما علي بي أيضاً

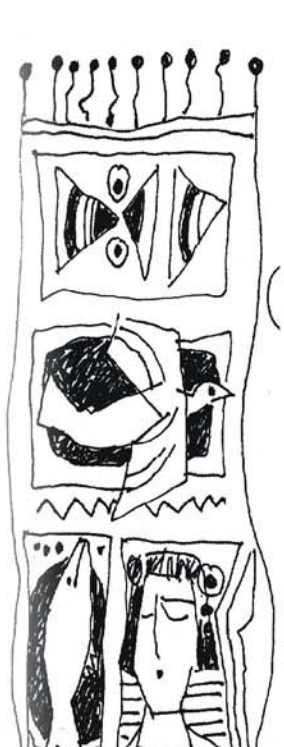

مكر كونديرا

سعد محمد رحيم

يرمي كونديرا إلى ادهاش قارئه لاحقاً إلى أكثر الطرق والتقنيات مراوغة وإثارة ومكراً في الكتابة الروائية، والتي من خلالها يحصل على كشوفاته لالا متوقعة.

في رواية (البطء) يقتفي أثر البطء قيمة إزاء السرعة موازناً بين فعلين، / حكايتين/ متناظرين، ومتباعدين بحدثان في زمنين مختلفين، ولكن في المكان عينه. وفي رواية (خفة الكائن التي لا تحتمل) يجعل قيمة الخفة في مواجهة قيمة الثقل، واضعاً إيانا في قلب التساؤل عما إذا لم تكن سطوة الثقل قدر عيشنا الذي يتهددنا، مظهراً أننا كما يقول ايتالو كالفينو / الروائي الإيطالي:

"كيف أن كل ما نختاره ومنحه قيمة في الحياة بسبب خفته سرعان ما يكشف عن ثقله الحقيقي الذي لا يطاق".

أما في رواية (الخلود) فإنه يخرق بمشرط الخيال جلد الواقع البليد ويحوله.

يلاحظ الراوي الذي هو الروائي نفسه (كونديرا) ابتسامة امرأة عجوز في مسبح، وتلويحة يدها الرشيقة فيستعير الابتسامة تلك مع تلويحة اليد ليخلق شخصية متخيلة هي أكنس / الشابة المتزوجة الجميلة زاعماً أنه "مثلما خرجت حواء من ضلع آدم، ومثلما ولدت فينوس من رحم الأمواج فإن اكنس ولدت من تلويحة تلك المرأة البالغة من العمر ستين عاماً عند المسبح".

وبوصف الرواية - أية رواية - عملاً تخيلياً فإن مستويات الخيال تتداخل في هذه الرواية. وإذا قلنا أن مقابلة الراوي / الروائي للمرأة العجوز في المسبح هي مستوى أول للخيال فإن المستوى الثاني له هو إيجاد اكنس بقوة للخيلة الروائية. ثم عندما يلتقي الراوي / الروائي بأكنس - شخصيته المختلقة - في النهاية بعد ما تتبع سيرتها بوساطة الخيال يكون المستويان قد تفجرا ليمتزجا بمستوى واحد - عام - يظل ينطوي في حقيقة الأمر على مستويات عديدة يتنقل القارئ الذكي في ما بينها بمتعة عالية.

ولا يختلف الأمر كثيراً في رواية (الهوية) إذ يتمازج الحلم مع الحقيقة حتى لا يكاد القارئ يفرق بينهما.. يغدو الحلم مكملاً لمسار الواقع المعيش. فعلاقة الحب بين (شانتال) و(جان مارك) تصاب بعطب عابر نتيجة الغيرة وسوء الفهم وبرتابة فتجيء أحداث تقع في أحلامهما لتصل بهما إلى مصائر كابوسية، وحين يستيقظان يكون العطب ذاك قد وصل حد التلاشي. ومع هذا فإن الفاصلة في هذه الرواية بين الحلم والحقيقة لا تكاد تبين.

يتبادل الحالان الواقع، ويستدعي كل منهما الآخر، ويدخل في حلمه غير أنهما لا وأنا من سريري.. هو بأحزان عجزه، وأنا بأحزاني التي تلتف اللحظة كأفعى أسطورية تمتد من "بغداد" إلى غرفتي لتطبق على عنقي تمنع عني الهواء.. أول شرط للاسترخاء ولتجميع شلاء الذاكرة المتشظية في التأمل البوذي الصحيح. أجاهد لأفتح عيني.. كأني بـ"أوسكار" يجاهد هو الآخر لئلا يسقط.. يحار بعنف مهتاج فترتفع عشرات الأكف الصاحبة لمغني الفلامنكو بتصفيق شبق مجنون يلهب "أوسكار".. ترافقه في لحظة تخطافه الوعود.. والأفعى تلتف تضغط على عنقي وأنا أقاوم لأصل إلى نهار يغزوه الضوء كل لحظة.. لأن بسطار أبحجم أمة يجثم على صدره.

البرد يتسلل إلى أطرافي والأوكسجين يشح في الغرفة الرطبة ويمنعني من التأمل.. أشعر بخدر مقبل.. لعل لحظة إنخطافي قادمة.. أحاول أن أتبينها بإعياء شديد خلل عويل عربة إسعاف مجنونة تدنو مهرولة لتوقظ الشارع.

وأنظر إلى الشارع لمح "أوسكار" الترنح ثملاً بموسيقاه يكاد يهوي إلى الأرض ثم يعود ليستقيم بأعجوبه. إنه منهك ووجه محتقن، عما قليل سيسقط مصروعاً على الأرض البليلة وسيهرع صاحب الدكان المجاور لاستدعاء عربة الإسعاف. سيموت "أوسكار" يوماً من شدة النشوة.. وسأموت أنا أيضاً استجلاباً لحالة الاسترخاء لأعضائي المتيبسة ككومة حطب ناشف.

كم ستكون خيبة معلمي البوذي عظيمة حين أخبره أني عجزت عند نقطة الصفر، فلم أفلح في الاسترخاء.. فكيف سأتوحد والكون آذن!! كيف سأصهر الجليد بإيماني وعزم روحي، وكيف سأبلغ ابتسامة "بوذا" بعد أن تشف الروح.. شكل اللادة الأرق!!

في الدرة القادمة سأسأل معلمي الورع إن كان بوسع "بوذا" أن يحتفظ بابتسامته الخالدة لو أنه أصغى لمئات الصواريخ تدك الأرض من تحته وتصدع لسماء من فوقه!

سأتنفس بعمق الوجع، وأزفر حمر الحنين، سأملأ صدري بموسيقى "أوسكار" علنا نبلغ النشوة معاً.. كل من عالمه.. هو من رصيفه، وأنا من سريري.. هو بأحزان عجزه، وأنا بأحزاني التي تلتف اللحظة كأفعى أسطورية تمتد من "بغداد" إلى غرفتي لتطبق على عنقي تمنع عني الهواء.. أول شرط للاسترخاء ولتجميع شلاء الذاكرة المتشظية في التأمل البوذي الصحيح. أجاهد لأفتح عيني.. كأني بـ"أوسكار" يجاهد هو الآخر لئلا يسقط.. يحار بعنف مهتاج فترتفع عشرات الأكف الصاحبة لمغني الفلامنكو بتصفيق شبق مجنون يلهب "أوسكار".. ترافقه في لحظة تخطافه الوعود.. والأفعى تلتف تضغط على عنقي وأنا أقاوم لأصل إلى نهار يغزوه الضوء كل لحظة.. لأن بسطار أبحجم أمة يجثم على صدره.

البرد يتسلل إلى أطرافي والأوكسجين يشح في الغرفة الرطبة ويمنعني من التأمل.. أشعر بخدر مقبل.. لعل لحظة إنخطافي قادمة.. أحاول أن أتبينها بإعياء شديد خلل عويل عربة إسعاف مجنونة تدنو مهرولة لتوقظ الشارع.

التنفس باسترخاء.. وساعات الصباح الأولى بهيئته البوذية للتشفة.

لن أذهب للدرس وسأكتفي بتنظيم أفكاري في جلسة روحية أقوم بها من فراشي... إنما الأعمال بالنيات. وستكون ذات جدوى حتماً.. فأعضائي منهكة.. والقصة التي بدأتها ليلة أمس استنفدت روحي إذ حاولت وما أزال أن التقط تفاصيل الذاكرة التشظية كلها في قصة قد تصلح يوماً شهادة عن زمن غادر، ووعي مغدور.. دون أن أتنازل عن شروط القصة الفنية.. وهي مهمة عسيرة أزعم أني قادر عليها.. والآن سأنجح في نفث سموم الجسد والروح.. سأسترخي.. وأركز أفكاري على أمر إيجابي... نعم، فالأفكار تجلب مثيلاتها، والخوف مصدر جميع الأفكار السيئة، وأنا حقاً.. أنصح خوفاً منذ أماد بعيدة، وذكرى تبتل عرقاً كلما استعدت تلك الأيام.. يقول "سدهارتا" إن التأمل يقودنا إلى مفتاح السعادة الذي اختفه الآلهة عن الإنسان فقررت أن تضعه في أعماقه، لتضلله فلا يجده أبداً، وأنا سأجده حتماً، فالرء دوماً يجد ما يبحث عنه بالإرادة، وإرادتي تفور يوماً بعد آخر، وبالرغبة، بذلك الجهد اللاواعي للإرادة، ورغبتي تفتر.. وأشولاتي وحدها تفترس جسدي كل ليلة.

برغم كل شيء، لابد من التركيز، من نفث الطاقة السلبية للجسد واستنشاق الطاقة الكونية بملء رئتي، ولكن موسيقى "أوسكار" تمنعني، تجرجرني إلى أحزان ثانية تتصادى وذاكرة تلك الأيام، تحول بيني وبين مفتاح السعادة، بل لعلني بالفعل عاجز عن بلوغ أي مفتاح مذ رميت مفتاح روحي في "دجلة" الحزين ذات عصر سعيد كنت أدرع فيه جسر "الشهداء".. سأطبق جفني وأتفث من صدري زفير أبلون الكراهية وطعم الموت، ليخرج من حلمي جلاد دون وعساكر ومسوخ.. وسأفكر بإيجابية وأحلم بأمهات لا يفتحن الآن الفخاذهن تأهباً لانجاب المزيد من الطغاة، وبأطفال يلثغون بأسماء الأشياء الأولى قبل أن تتشوه بلغة الدكتاتور.

ذاكرتي مثقلة بالقصف وأصوات الانفجارات وبالأنين، وعازف الجيتار الغجري يضرب على أوتار الذاكرة.. يجرحها، أفتح عيني بألم لهذا الصباح رائحة الذكرى.. شيء ما.. أعرفه - أيقظني في هذه الساعة المبكرة في مدينة تتنفس بعمق من غفا بعد ليلة صاخبة راعقة بالحياة.

وحده "أوسكار" يحمل جهاز التسجيل كعادته، يدنيه من آذنه ويبعده بتناغم شديد مع اللحن النبعث.. إنه (بان) للدينة العصرية، بعد أن تحطمت نايات الرعاة وبعد أن تربع القطيع على مكاتب أنيقة وصار يمتطي عربات فارهة، وطفى ثغاؤه على كل ما سواه... وراح يضغ أحلامنا، حلماً أثر آخر ويلفظها بوجه أيامنا.

أقسم أني رأيت وجوهاً وأياماً لا ملامح لها، كأنها بقعة ضوء جافة.. ولكن... مالي وهذه الأفكار؟ ما زال الصباح يفرك عينيه ويتثاءب وموسيقى "أوسكار" تتناهى إلي من أقصى نقطة في جمجمتي، فلا كن أكثر تفاؤلاً..

رفعت رأسي بتثاقل مؤلم ونظرت من نافذتي المجاورة، لا أكاد أتبين شيئاً من خلل الزجاج المثبب بأنفاسي المختنقة طوال الليل في الغرفة الرطبة.. هو ذا يتهايل بحنان غريب، جسده البدين يتثنى يرفق مع تهدج صوت مغني الفلامنكو، يتحرك في نقطة واحدة لا تتغير من الشارع الخاوي في هذه الساعة الفتية من صباح شتائي، أتطلع إلى الشارع.. برصيفه المؤطر بعناية.. بإشارات الضوء الواقفة باعتداد دائم.. وبصور الرجال الصغار المصلوبين أبداً على المصابيح الملونة، بأصابع الزرع وحاويات القمامة الأنيقة.. كل شيء يوحي بعناية ونظام يخلوان من عبث الحياة في مدينة لا تعنيني.. بل للأمانة والدقة أقول.. لا أعنيها.

ألمح الكهل التصابي يخرج من منزله، سيدنو من "أوسكار" المنشغل بموسيقاه، يداعبه بتعليق وغد، وقد يغويه ذات صباح مهجور ليوم أحد حزين كهذا.. ها هو يحييه بنظرة نارية ويمضي، على وعد غامض ما، تاركاً "أوسكار" متوحداً مع حزن موسيقاه، أثراً وحيداً للحياة في تضاريس هذا الشارع الرمادي الكابي.

لابد لي من النهوض سريعاً، لن أشكو هذا الاستيقاظ المفاجئ، ولن العن "أوسكار" وموسيقاه التي اعتادت أن تفسد علي كوابيسي وتحملني على الصحو للبكر.. سأغتسل وارتدي ملابسي وأنطلق بجناحي طائر نجيب لساعة التأمل البوذي، سأكون سواي بعد لحظات.. وسأعلن هدنة مع الكون ومعي.. سأبدأ تأريخاً أتوحد فيه مع الطبيعة.. أتآخى فيه و"أوسكار" وعلى الرغم من هذه الإضاءة الخاطفة فإن كونديرا يمارس معنا اللعبة حتى شوطها الأخير، ويتركنا حيارى.. إنه يعول على ذكائنا، ويثق بحدسنا، وبمنحنا فرصة أن نشاركه في إعادة ترتيب بيت روايته من خلال أسئلة متلاحقة ليس من اليسير الإجابة عنها بشكل قاطع.

وول مرة - في الصفحتين الأخيرتين - يتدخل بضمير المتكلم (أنا)، وهذه المرة (أنا) لا ندري لمن تعود.. لكونديرا الروائي الماثل على مسافة من روايته، أم لمراوي الأول الذي هو كائن داخل نسيج الرواية.. (أنا) التي تتساءل، وهي في الحقيقة توجه لنا السؤال، نحن القراء، لنتموه علينا ربما.. أو لنزجنا في لعبتها التي ابتكرتها، ولم تعد بمقدورها السيطرة عليها تماماً.. إنها تطلب معونتنا، ومعها تورطنا في حكايتها.. حكايتها التي تتشعب في اتجاهات عديدة.

"وأنا أتساءل: من الذي حلم؟ من حلم بهذه القصة؟ من تخيلها؟ هي؟ أم هو؟ أم كلاهما؟ كل واحد عن الآخر؟ وانطلاقاً من أية لحظة تحولت حياتهما الواقعية إلى هذا الخيال الناكر.. ما البرهة الدقيقة التي تحول فيها الواقع إلى لا واقع.. الحقيقة إلى حلم؟ أين كانت الحدود؟ أين هي الحدود؟

في روايات كونديرا تغدو الـ(أنا) مركزاً. فهذه الروايات معنية بالذات الإنسانية، والكيفية التي بها ترى أعماقها وتتفهم نفسها لكي (تكون).. في العالم.

وإذا كانت الرواية كما يعبر عنها كونديرا هي "صيغة نثر عظيمة يقوم للؤلف باستكشافها عن طريق ذوات تجريبية (شخصيات).. بعض ثيمات الوجود الرائعة". فإن مغامرة هذه الذوات التجريبية في العالم هي ثيمة الثيمات. وما يعني الروائي، ها هنا، هو ملاحقة مسارات للغامرة تلك بمنظور ولغة خاصين، حيث تتجلى قدرة وموهبة وبراعة الروائي واختلافه عن الروائيين الآخرين، ناهيك عن اختلاف الرواية عن بقية الأنواع الأدبية.

وكونديرا في الغالب، يحاول الوصول إلى ما يريد فهمه أو لكتشافه عن طريق آخر غير الطرق التي ألفناها، وعبثاً أن على الروائي أن يرسم "خريطة الوجود باكتشاف هذه الإمكانية الإنسانية أو تلك." ولأن العملية تنطوي على رؤى وتصاميم مسبقة فإن هدف الروائي هو المضي في الرحلة حتى نهايتها، فهو لا يريد أن يكون في موقع الإله الذي يعرف قبلياً أي شيء وكل شيء، بل ان يكتفي بموقع المغامن الذي يداهم بوساطة اللغة والرؤية للذيات اللانهائية من المجهول القابع بتحد أمامه. يقول كونديرا: "عندما غادر الإله عرشه ببطء من حيث حكم الكون ونظم قوانينه، وفرق بين الخير والشر، ومنح كل شيء معنى، انطلق دون كبوتوت من بيته إلى عالم لم يعد قادراً على معرفته. في غياب الحكم الأعلى، بدأ العالم فجأة في غموضه المخيف، وانقسمت الحقيقة للطلقة الواحدة إلى الاف لحقائق النسبية يتقاسمها الناس.

هكذا ولد عالم العصر الحديث، ومعه الرواية، صورة ذلك العالم ونموذجه".

للصادر:

1- ايتالو كالفينو (ست وصايا للألفية القادمة) ترجمة محمد الأسعد.

2-ميلان كونديرا (فن الرواية) ترجمة: أمل منصور.

3- روايات كونديرا

- البطء

- خفة الكائن التي لا تحتمل

- الهوية.

- الخلود.

تأملات بوذية على رصيف الموت

باهرة محمد عبد اللطيف